



# الاحتلال الذاتي آليات الاستتباع الناعم للقوى الغربية

هادي قبيسي\*

## مقدمة

الحديث عن قوّة الاستتباع الناعم يمكن أن يأخذ منحى المقارنة مع قوّة الاستتباع الصّلب، كما يمكن أن نقارب هذه القوّة من ناحية الكيفيات المختلفة لعملية الاستتباع تلك، أو من خلال الأدوات والسُّبل والسياسات التي تُمكن من هذا الاستتباع دون اللّجوء إلى القوّة الصّلبة، لكن ما سنعرّض له في هذا البحث هو كيف يتم إعادة إنتاج التّابع ليولّد قوّة للمستعمر، فننظر إلى الاستتباع هنا بما هو منشأ قوّة وليس ناتج قوّة؛ بينما يمكن أن نطلق عليه مع بعض التّجاوز: الاحتلال الذاتي.

تطوّرت التجربة الاستعمارية وانتظمت وتحوّلت إلى مستوى تفاعليّ بدل أن تقتصر على مجرد الفعل، فهي لم تعد مجرد قوّة خارجيّة تقتحم المساحات المستهدفة؛ بل باتت تستمد قوّتها من البنى القائمة في تلك الجغرافيات نفسها، وهذا ما نشهده اليوم في هذه المرحلة المتقدّمة من الاستعمار الحديث، مع أجيال

\* كاتب وباحث في السياسة والإسلام السياسي، متخصص في السياسة الخارجية الأمريكية، والحركات الإسلامية، والإعلام الحديث، مدير مركز الاتحاد للأبحاث والتطوير.

عدة وجديدة من التابعين والخاضعين، ومع تطور كبير في شكل وأدوات الاستعمار ينسجم مع تطور التكنولوجيا التي باتت تنتشر بشكل غير مسبوق حول العالم كله. السؤال الأساس الذي سنجيب عنه: هل يُشكل الاستتباع الناعم قوةً لدول الهيمنة؟ وكيف يتم استخدام نتائج الاستتباع في إعادة توليد القوة الناعمة؟ سنتحدث في الإجابة عن هذا السؤال عن النخب المحليّة التابعة، النخب التي تعمل في المؤسسة الاستعماريّة، وكيف تصنع قوة الاستعمار الحديث من خلال قيامها بعنصرين أساسيين من وظائف الهيمنة وفعاليتها، هما: الرقابة، والتدخل. تمارس قوة الاستتباع تأثيراً هائلاً على حياتنا المعاصرة، وقد امتدت في عمق ثلاثة قرون من الزمن، ولا تزال مُتبدّلة في الأنماط والأشكال، مُتكيفة مع التحوّلات والظروف؛ لتحافظ على دورها في حراسة تدفق موارد الدول الشّرقية والجنوبيّة الفقيرة إلى خزائن الدول الغربيّة والشّماليّة الغنيّة، على أن جزءاً من بنية هذه القوة يبقى في الظلّ، ويحتاج إلى حفر في موارد معرفيّة مناسبة لتبيين مجالاته وامتداداته؛ بينما يظهر جزء كبير من تلك القوة مُتسلحاً بالمشروعيّة والحدائث والتّموليل. إحدى الأبعاد المُهملة إلى حدّ ما، هي المكانة التي احتلتها مع مرور السنين والتجارب، تلك النخب التي تمّ توظيفها داخل بنية المؤسسة الاستعماريّة، والقيمة الحقيقيّة التي تُشكلها في تلك المؤسسة، لا على هوامشها أو خارجها؛ بل في داخل التركيبة الوظيفيّة الرّسميّة فيها. لقد تناول كثيرون بحث إثبات تبعيّة تلك النخب وارتباطها وانحيازها لمصلحة المحتلّ، دون أن يتمّ التّدقيق في القيمة الحقيقيّة لدورها، وكم تُشكل من ميزان القوة في مشروع تلك المؤسسة الاستعماريّة.

قلّصت الدولة المستعمرة تدريجيّاً من شكل سطوتها وسلطنتها، وتحوّلت إلى ما وراء الكواليس، لكنّها بقيت تمسك بالخيوط؛ من خلال النخب التي اعتقدت أنّ وظيفتها داخل المنظومة الخارجيّة الغربيّة جزء من مسار التّحرّر الخاصّ بها؛ ما سمح للاستقلال أن يأتي متأخراً كما يقول المؤرخ الهندي فيجاي براشاد، في كتابه الأمّ الدّاكنة<sup>1</sup>.

لقد أُعطِيَ الاستقلال للدول المنهوبة بعد فوات الأوان، بعد أن تحوّلت النخب الاجتماعيّة إلى جزء من عمليّة الهيمنة، ولم يكتفِ المستعمر، الذي استحدث

1- Vijay Prashad, The Darker Nations: A People's History of the Third World, 2008, p 245.

أدواته بعد إعطاء الدول الاستقلال وحق تقرير المصير، بنفوزه داخل أجهزة تلك الدول، التي لم تتمكن نتيجة ضعفها وفسادها أن تكون شريكاً للمستعمر، ما اضطره إلى التعامل مع البيئة الاجتماعية بشكل مباشر. وهكذا، تم تأطير جزء كبير من النخبة المحلية لتتحول إلى أداة، بدل أن تكون مُحركاً ودافعاً للاستقلال والتحرُّر؛ أداة تستفيد من التحرُّر الجزئي لتنال امتيازات خاصة، وتحفظ استمرارية الهيمنة الجزئية القادمة، وإن كانت من حيث العمق هيمنة شاملة على كل التفاصيل الحياتية. سُميت تلك الهيمنة نشرًا للديموقراطية، أو تحديثًا للمجتمعات، أو دعمًا لحقوق الإنسان. ومن أجل حماية الجنود الأجانب تُسمى الدولة المحتلة (الدولة المُضيفة)؛ أي أن جنودها هم مجرد ضيوف مسلّحين، يقومون بتأهيل جنود الدولة المُضيفة وموظفيها، وتدريبهم للقيام بواجب الاحتلال الذاتي، وتيسير أمور المستعمر.

### الاستتباع والحراك الاجتماعي

قال ابن خلدون في الفصل الثالث والعشرين من مقدمته «المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في الغالب»، وقال أيضاً في النص نفسه: «لذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه، ومركبه، وسلاحه، في اتخاذها وأشكالها»، فالشعوب المغلوبة تظن أن «غلب الغالب لها (الشعوب المغلوبة) ليس لعصبيّة ولا لقوّة بأس؛ وإنما لما انتحلته من العوائد والمذاهب».

يُعلق مالك بن نبي على تلك الإشارات المبكرة لدى ابن خلدون في تحليل الاستعمار، التي تميل إلى أن تكون مقولات تقليدية؛ بسبب انتشارها وأسبقيتها، محاولاً الحفر قليلاً في التحليل النفسي سمة عصره، فيقول «والسبب في ذلك، والله أعلم، ما يحصل في النفوس من التّكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها»، ويشير إلى أن من يتعرّض للاحتلال هو إنسان عرضت له حالة استعداد ليكون خادماً وتابعا «إنّ القضيّة عندنا منوطة أولاً بتخلّصنا ممّا يستغلّه الاستعمار في نفوسنا من استعداد لخدمته»<sup>1</sup>.

1- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 154.

شهدت القرون التي تفصل ابن خلدون عن مالك بن نبي حراكاً اجتماعياً كبيراً للنخب التابعة، يتحدث ابن خلدون عن التشبه بالغازي الغالب، أما مالك بن نبي فيتحدث عن خدمة لذلك الغازي. لقد اتخذ الغزاة دوماً إماءً وجواري وأقناناً وعاملين سخرةً في مشاريعهم، فتلك حالة استعباد قسري. أما الاستعداد للخدمة فهو أمر آخر، هو ميل نحو الانضواء في مؤسسة الغالب المحتل. تزامن ذلك الحراك مع تغيير في لغة المستعمر الغربي وأسلوبه في إدارة النخب وتوظيفها، التي سيتيح لها أن تتحول إلى طبقة عليا في المجتمع المحلي وأن تصبح أداة له، وليست بوصفها فئة هامشية من الأقنان والعبيد، فقد أعطيت «الخيانة الوطنية» قيمة اجتماعية سامية.

سنسلط الضوء قليلاً على بعض المحطات التاريخية التي سبقت ما اصطلاحنا عليه «الاحتلال الذاتي»، لترصد ذلك الحراك الاجتماعي الذي رافق تطور أشكال الاستعمار وعمليات تحديثه وتزامن معها، لنلاحظ مدى حدة الخط البياني لذلك الحراك، وما سيسكله من تحول في بنية الهيمنة وقدرتها، وتخفيض تكلفتها السياسية والاقتصادية.

نبدأ من المنظور الديني، حيث شكّلت المقولات الدينية الاستعمارية المحدد الأول والأسبق في ضبط عملية الاستعمار، ورسم محدداتها، فنعود مبكراً إلى البابا المقدس الرابع (1195-1254) الذي شرع السيطرة على أراضي الشعوب المتخلفة حين لا تستطيع إدارة أمورها. يقول البابا الرابع: «استخدام القوة ضد الكافرين مشروع في حال مخالفتهم للقانون الطبيعي. الكافر لديه الحق المشروع في إدارة شؤونه وممتلكاته، لكن تلك السلطة تلغى إذا ثبت أنها لا تستخدم وفق المبادئ العقلانية»<sup>1</sup>.

هكذا تمّ تسويق استعباد الشعوب البدائية وتشريعها، لكن مع تقدّم الزمن ونضج التجربة الاستعمارية سوف نرى أنّ «المتحضر» الغربي لا يستطيع أن يمارس السلطة على الشعوب الأصلية (الدول النامية بلغة اليوم) من دون الاعتراف بكفاءة تلك الشعوب وسعيها وجهدها إلى إبقاء الهيمنة، حتى لو اتّهما بالتخلف والبربرية والعجز عن إدارة شؤونها، أو ما اصطلاح على تسميته بلغة اليوم وفق معايير «دولة فاشلة». إنّه يسيطر على تلك الدولة بوساطة أبنائها العاجزين أنفسهم، من خلال

1- The Stanford Encyclopedia of Philosophy, Colonialism.

مُدرء محليين يتولون القيام بشؤون الهيمنة عنه بكفاءة كافية.

في التجربة الإسبانية، أيام رحلات استكشاف الأمريكيتين ونهبها، تمّ تناسي سبب التشريع الذي قدّمه البابا الرابع؛ أي مخالفة الشعوب الكافرة للقوانين الطبيعيّة، والاكتفاء باستغلاله لتطويع شعب من العبيد الأقنان الذين يعملون بكفاءة وبالمجان. وفي العصر الحاضر، تمّ تناسي قصّة التّحديث، والكلام عن تخلف الشعوب الخاضعة للاستعمار؛ ليتبيّن أنّ فئات من تلك الشعوب هي التي تهندس استمراريتها، وتمّ بناء فيالق تعمل بوعي وبمرتبات مرتفعة، وتقدير اجتماعي من قبل المستعمر لتؤديّ عنه الوظائف الأكثر حساسيّةً وصعوبةً، والمُتعلّقة تحديداً بالسيطرة على البيئة الاجتماعيّة التي تختلف في فكرها وطباعتها عن المستعمر وثقافته، فيجد صعوبةً شديدةً في التّعامل معها.

وفق اللّغة الدّينيّة المبكرة للبابا الرابع، فإنّ أولئك الموظّفين المحليين لمصلحة الأبيض المُتخصّر، هم الكافرون الذين تلقوا التبشير، وأصبحوا بأنفسهم أدوات تبشير للتبعية، لقد تحوّلوا إلى مؤمنين في أرض الكفر، يُمثلون كذلك العقلايّة في إدارة الشؤون المحليّة وفق المبادئ التي تؤديّ إلى استمرار التبعية.

بعد قرنين من الزّمن، ومع بداية الحركة الفعّالة نحو الأمريكيتين، قدّم فرانثيسكوس دي فيتوريا (1483م-1546م) مقارنةً جديدةً، تعتمد على الفكر القانوني لا التشريع الدّيني، حيث كانت موجة ما يُسمّى بـ «الأنوار» قد بدأت، وهو فيلسوف إسبانيّ كاثوليكيّ، عمل على مفهوم الحرب العادلة، وكان من أشدّ النّقاد لاستباحة الإسبان للهنود الحمر.

في نصّ يجمع محاضرات ومقالات عدّة له بعنوان «الكتابات السّياسيّة» يشرّع فيتوريا لسلوكيات ما بعد النّصر، وأدبيّات الهيمنة: «بعد خوض الحرب ونيل النّصر، ينبغي للأمير أن يستخدم انتصاره باعتدالٍ وتواضعٍ مسيحيّ. على المنتصر أن يكون حكماً بين الطرفين، عليه أن يُرضي المعتدى عليه، لكن إلى الحدّ الذي لا يقضي على الطّرف المعتدي بالكامل»<sup>1</sup>، من المنظور الحقوقيّ، بدأ التأسيس للتعايش مع الشعوب المغلوبة، والاندماج التّدرجيّ بها، والانخراط مع الفئات التي تفاعلت مع حالة الهيمنة، فيجب أن يتمّ الحفاظ على المعتدى عليه، فله الحقّ في الوجود،

1- Francisco de Vitoria, Vitoria: Political Writings (Cambridge Texts in the History of Political Thought), p 327.

ولاحقًا سوف يكون ممكنًا الاعتراف به، والتعامل معه وصولًا إلى الاعتماد عليه. استغرق الأوروبيون قرونًا عدة قبل الوصول إلى مراعاة تلك الحقوق، بعد إنهاء الاستباحة الكاملة للشعب الأمريكي الذي يسمّى بـ«الهنود الحمر»، وهي تسمية تقلع روابطهم الجغرافية من جذورها.

يقول فرانسيسكوس في الإجابة عن سؤال: هل يحقّ للمنتصر أن يفرض الضرائب على المهزوم: «بالتأكيد من المشروع القيام بذلك، ليس فقط بوصفها مكافأة بدل الخسائر؛ بل كذلك بوصفها عقوبةً وانتقامًا»<sup>1</sup>، الحراك الاجتماعي الذي خاضته النخب التابعة مع امتداد القرون حولها إلى مستفيدة من المهيمن ماليًا واقتصاديًا، فقد تمّ تحييدها عن دائرة «المهزوم»؛ لتضع نفسها في خانة «المنتصر»، وتجنّي الأرباح من ذلك، فالاستتباع أصبح يقتضي تقديم المساعدات والهبات والقروض للدول المهزومة بعد الانتصار في الحرب، وتحويل النخبة المحليّة، وشراء ودّها، وتمويل ولائها، واستمرارية تأثيرها، وخدمتها لغرض الهيمنة.

الخطوة المهمّة التي سوف يخطيها فرانسيسكوس نظريًا، دون أن يكون لها أثر واقعي في زمنه، هي الاعتراف بأنّ الشعوب الكافرة لها الحقّ في ممتلكاتها. يقول بلغة ثورية رافضة للواقع القائم «يتمتع السكّان الأصليون بالسيطرة الحقيقيّة على شؤونهم العامّة والخاصّة، تمامًا مثل المسيحيين، ولا يمكن نهب أمرائهم، أو أفرادهم، وسلب ممتلكاتهم كما لو أنّهم غير موجودين؛ فهم أصحاب تلك الممتلكات الحقيقيون»<sup>2</sup>.

حوّلت القرون التي مرّت عملية الاستتباع بشكل كليّ، أصبح الاستتباع يتضمّن رفع الشّعارات الحقوقيّة، «فحقّ تقرير المصير» شعار يرفع بوجه من يخطط لمصير يضرّ بالمصالح المشتركة بين النسيج الهجين من التّابعين والمستعمر. والديموقراطية، وحقوق الإنسان، وغيرها من الشّعارات تستخدم بوصفها أدوات، و«مؤسّسة الدّفاع عن الديموقراطيات»<sup>3</sup>، في واشنطن، تُشكّل الآن عصبًا رئيسًا للتطرّف في التّعامل مع الفئات الراضية لهيمنة الأمريكيّ.

1- Francisco de Vitoria, p 325.

2- Francisco de Vitoria, p 325.

3- Foundation for Defense of Democracies.

نصل إلى بداية القرن العشرين، حيث تحدّث الإثنوغرافي الألماني فريدريك راتزل عن المدى الحيوي وتمدده للإنسان الذي يحقّ له، كما يحقّ للكائنات الأخرى، أن يتمدّد ويتوسّع، حيث يحتاج إلى الكلاً والمرعى. والكتاب بعنوان (المجال الحيوي)<sup>1</sup> وصدر في العام 1901م، الذي عدّ فيه أنّ كلّ الشعوب تحتاج إلى توسيع مجالها الحيوي الجغرافي؛ كي تبقى على قيد الحياة وتستمرّ، الفكرة التي أسهمت في تسويغ قتل 40 مليون إنساناً، وتشريعه لاحقاً خلال الحرب العالميّة الثانية.

تولّد قوّة الاستتباع أنسجة هجينّة، تجمع بين رؤيتين وتطلّعين وهويتين، أنسجة وكيلة لكنها محلّيّة، فالتمدّد البيولوجي الذي لم يعد ثنائياً، بين جماعة مهيمنة وجغرافيا حيويّة، لكن أصبح بينهما نسيج ثالث، يعمل بوصفه برزخاً يسهل عمل الهيمنة، هذا ليس بجديد، فقد كان في جيش هتلر الذي غزا روسيا الكثير من الجنرالات الأوروبيين الذين وقعت بلادهم وجيوشهم تحت الاحتلال، ونالوا أوسمة ألمانيّة من هتلر؛ نتيجة خدماتهم وإنجازاتهم ضمن الجيش الألمانيّ.

التحوّل القائم الآن، يجعل من تلك الأنسجة الهجينّة التي تولّدت من احتكاك المستعمر مع الشعوب المحليّة، عنصراً يوفر القدرة على حراسة الاستتباع مع المتغيّرات الحياتيّة الكبرى الجارية، وهي: تطوّر المواصلات، ووسائل التّواصل، والتّفاعلات الاجتماعيّة السياسيّة التي أتاحها، عالم متعدّد الأقطاب يدفع بالمنافسة بين قوى الهيمنة إلى حدود قصوى، وإن لم تقترب من مشاهد ما بعد الحربين العالميّتين، وجود كتلة ثوريّة فعّالة لا تزال تواجه الحالة الاستعماريّة بفعاليّة وكفاءة غير مسبوقّة منذ بداية الاستعمار، خصوصاً في منطقة غرب آسيا المحوريّة في جغرافية الهيمنة الدّوليّة، الحركات العابرة للقوميّات التي تهدّد وفق نظريّة الدومينو بحصول تداعيات غير منظورة في سرعتها وامتدادها وتأثيرها، ونهاية حقبة التّحديث (1945م - 2011م) والدّخول في مرحلة ما بعد التّحديث.

في مرحلة الاندفاع الاستعماريّة الإنجليزيّة الكبرى في بداية القرن العشرين، كتب الأديب رديارد كيبلينغ (1865م-1936م)، وهو بريطانيّ ولد في الهند، قصيدة شهيرة بعنوان: «واجبات الرجل الأبيض: الولايات المتّحدة وجزر الفيليبين»، نشرت في مجلة ماكلور في العام 1899م، عند بداية الحرب الأمريكيّة

1- Friedrich Ratzel, Der Lebensraum, 1901.

على الفيليين، تحفيزًا للولايات المتحدة للدخول في النادي الاستعماري أسوءً بالدول الأوروبية.

«من أجل ربح جديد

تحمل واجبات الرجل الأبيض

والجنى القديم:

لوم الحاسدين وعتابهم

بكاء من تحاول إضحاكهم قائلين:

لماذا أتيتم بينا من العبودية؟

من ليالي مصر الحبيبة؟».

في مسار الحراك الاجتماعي للمستتبع، نضج الواجب وتطور حتى أصبح الاستعمار واجب الرجل الجنوبي الأسمر مثلما هو واجب الرجل الأبيض، يقوم به بفارغ الصبر والإخلاص، ويتحمل عبء من لم يتم استتباعهم من أهله وشعبه، ويقوم بواجباته تجاههم بتمويل من الرجل الأبيض. تمويل أتى في الحقيقة من موارد يمتلكها أهل البلاد في الأساس. من دون شك، أسهمت الحركات التحررية في تغيير آلية الهيمنة، كما أسهمت في ذلك الثقلات الكبرى في عالم التكنولوجيا، حيث لم يعد بالإمكان الاستمرار في الأطر التقليدية، واحتاجت الهيمنة إلى منظور مختلف في كل مرة واجهت فيها رفضًا واستعدادًا للتحرر، ومارست قدرًا كبيرًا من التكيف والمرونة لتبقى وتستمر.

## الاستعمار الحديث

بدأ استعمال هذه المفردة بعد الحرب العالمية الثانية إثر موجة الاستقلال الشكلي التي عمّت المناطق التي وقعت تحت الاستعمار الغربي، فمع تراجع القدرات المالية والعسكرية للدولة الاستعمارية؛ نتيجة الاستنزاف الهائل الذي تسببت به الحرب العالمية، بدأ الانتقال إلى الاستعمار الحديث؛ أي الهيمنة بطرق غير مباشرة على الدول التي تحررت ونالت استقلالها.

يقول هورفاث رونالد الباحث الأمريكي في شؤون التاريخ الاستعماري في سياق عرضه لتاريخ الاستعمار وأشكاله، أن هناك مرحلة كان فيها انفصال شبه تام

بين القوّة المحتلّة وأهل البلاد، ولكن مع الوقت ظهر شكل آخر من الاستعمار، «وتكون العلاقة بالنسبة إلى هذا النوع الثاني بين المستعمر والمستعمّر علاقة من التداخل الاجتماعي. ومن ضمن الأمثلة الكثيرة على ذلك النوع دول أمريكا اللاتينية المتحدّثة بالإسبانية؛ مثل: الفيليبين، والشرق الأوسط الإسلامي العربي، ودول شرق وجنوب شرق آسيا. في كلّ تلك الحالات، وفي حالات كثيرة أخرى يمكن سردها، كان المستعمرون مثل الثقافة المانحة وكان المستعمرون مثل الثقافة المستضيفة، مع وجود حجم كبير جداً من التبادل الثقافي»<sup>1</sup>. ذلك التداخل الاجتماعي بين الجماعتين: المهيمنة والخاضعة، ولّد تبادلاً ثقافياً ومعرفياً يتضمّن، بطبيعة الحال، تسهيل سرديات مشروعية الهيمنة وضرورتها، وما رآه ابن خلدون من انضواء للخاضع تحت ظلّ التجربة الحياتية للمهيمن.

يعتقد رونالد بأن تلك الهيمنة لا تختلف في نتائجها عن الهيمنة المباشرة التي كانت قائمة خلال الحضور الاستعماري في الدول المحتلّة؛ «الإمبريالية الإدارية هي صورة من صور الهيمنة بين الجماعات، حيث يوجد تحكّم رسمي في كل شؤون المستعمرة من خلال الجهاز الإمبريالي الإداري المقيم. تتساوى الإمبريالية غير الرسمية مع الاستعمار الجديد «النيوكولونيالية»، شبه «نصف» الاستعمار، والإمبريالية الاقتصادية، وهي تعدّ نوعاً من أنواع الهيمنة بين الجماعات، حيث يغيب التحكّم الإداري الرسمي، وتمارس السُلطة من خلال النخبة المحليّة»<sup>2</sup>، وتلك النخبة هي نسيجٌ وظيفي هجينٌ لا هو محليٌّ ولا هو أجنبيٌّ؛ وإنّما مزيج فرضته الظروف، وشرعته سرديات التحديث والتحرّر المختلطة بشكل براغماتيّ صرف.

## محركات التحوّل

كانت الجيوش الاستعمارية تُجنّد في السابق أفراد الأقليات لتحارب السكّان المحليين بهم، نظراً إلى التكلفة العالية للجندي الأوروبي، إلى حدّ تحوّل الجيش البريطاني في نيجيريا وغرب أفريقيا إلى جيش يتألف بأكمله من المقاتلين

1- Ronald J. Horvath, A Definition of Colonialism, Current Anthropology, Vol. 13, No. 1 (Feb., 1972).

2- Ronald J. Horvath, (Feb., 1972).

المحلّيين<sup>1</sup>، مع ضباط إنجليز، وكانت الفئات التي تقبل العمل لدى المستعمر، تحفظ وظيفتها مع تعبير المستعمرين. تأسست جذور الاستعمار الحديث إذن داخل بوتقة الاستعمار التقليدي، حيث تم استيلاء نسيج هجين، يُشكّل منطقة استيعاب للصدمات التحرّرية. ومع الانتقال إلى الشكل الحديث، تحوّلت تلك الوظيفة من المجال العسكري، كونهم مقاتلين مستعدين للموت بدلاً عن المستعمر، إلى المستويات السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وسائر الشؤون العامّة.

يعود ذلك التحوّل الكبير في المفاهيم والأساليب من جهة إلى التكلفة الكبيرة للاستعمار المباشر (القديم)، الذي ثبت حينما جرّبه أمريكا مؤخراً في العام 2003م أنّه لا يزال ذو آثار مُدمّرة، ومن جهة أخرى، إلى عدم تقبّل الشعوب للاستعمار المباشر واستثمارها للصراعات بين المستعمرين لتنال حرّيتها، كما يعود من جهة ثالثة، إلى صعوبة استمراريّة الاستتباع بالاعتماد على الرجل الأبيض؛ نتيجة تطوّر الوعي الجماعيّ للشعوب المنهوبة. وبتلك المرونة، استطاعت الإمبراطوريّة الغربيّة بناء ذلك التآلف بين مجال الاستتباع، وتدفّق الموارد إليها، على الرّغم من موجات التحرّر المُتتالية والمُتصاعدة في زحمتها وشكلها.

### تمثيل الاستتباع

الاستتباع، كما أردنا أن نضيء على حقيقته العملائيّة، ليس فعاليّة ناتجة عن مجرد شعور التابع بأنّه راغب، أو مضطّر للتبعية، وما يترتب على ذلك من حيازة الجهة القويّة للموارد والفوائد وقدرة التأثير؛ بل هو عمليّة دائمة ومستمرّة، تستفيد من التأسيسات: الثقافيّة، والنفسية، والجماليّة، والتراكمات في التصوّرات، والإدراكات، والميول الفكرية؛ بما يؤدي إلى دوام توكيل فئة محلّية بالقيام بواجب الاحتلال الذاتي، وحفظ استمراريّة الهيمنة. يتميّز المنظور العملائيّ أنّه يستطيع أن ينقلنا من التّحليل النظريّ إلى الواقع اليوميّ المعاش، إلى التّفصيل الإجرائيّة للهيمنة، إلى المعاشية الفعلية لمنظومة الاستتباع؛ بما يتيح التّفصيّل والبحث اللاحق عن الآثار، والمسارات، والشخص النّاتجة عن رويّة التبعية، وفكرة الاستتباع، ضمن سياق تحليليّ يدمج بين التاريخ والحاضر، فيكشف عن تزامن التغيّر

1- John Barrett, The Rank and File of the Colonial Army in Nigeria, 1914-18, The Journal of Modern African Studies, Vol. 15, No. 1 (Mar., 1977).

والاستمرارية في أشكال المستعمر، وموارده، وأدواته.

انسحبت الجيوش الاستعمارية من أغلب المساحات التي دخلتها وهيمنت عليها بالقوة والإكراه، وعادت إلى بلادها تاركة خلفها مُمثلية مدنية، ونخبة تابعة، وفي كثير من الأحيان نظاماً سياسياً تابِعاً، أو قواعد عسكرية جرى بناؤها وتطويرها على أساس «اتفاقيات» رسمية موقعة مع النظام المحلي المضيف.

المُمثلية المدنية تلك هي التي سنتطرق إليها في المعالجة، فهل هي مُمثلية مُكوّنة من العنصر الأبيض؟ ولا بُد من استخدام كلمة العنصر؛ لأن العنصرية البيضاء لا تزال الدافع الرئيس للهيمنة، تتوالد وتستمر ضمن عائلات سياسية استعمارية، تورث مشروعية الهيمنة وأحلام ما وراء البحار، وإمكانية الوصول إلى السُلطة لكن خارج البلاد؛ ما يتيح للنخبة البيضاء أن تجد لها مُتسعاً من المساحات القابلة للتسلط، ويخفف من التنافس الداخلي، فهناك دول كثيرة يمكن حكمها من قبل رجل أبيض، ولكن بشكل غير رسمي. السؤال الأساس عن تلك المُمثلية، وما طرأ عليها مع الحراك الاجتماعي للنخب التابعة؛ بحيث تحولت إلى مُمثلية مزدوجة، تجمع بين الرجل الأبيض، والرجل الأسمر في مكان واحد، لكن في طبقية إدارية مُحددة لا تتخلف.

وصلت النخب التابعة إلى حدّ الامتزاج والازدواجية الهوياتية؛ بحيث تستطيع تمثيل الاستتباع والقيام بوظائفه، وليس فقط التعرّض له والتأثر في آلياته، وذلك في مستوى حسّاس ودقيق يكفل استمرارية الهيمنة. تقوم الهيمنة من بُعد على أساس الرقابة والتدخل، كأبي سلطة أخرى، لا تحفظ كينونتها ومشروعيتها الواقعية إلا من خلال هاتين الوظيفتين الرئيسيتين. فمن دون الرقابة تجري التحوّلات الكامنة والخفية بالتدريج على هامش التاريخ. ومن ثمّ، تتحوّل ببطء إلى حالة فعّالة ومؤثرة تُهدّد السُلطة. والرقابة هي قرين القدرة على التدخل، ومن دون القدرة على التدخل لا معنى للرقابة فعلاً، فاكتشاف التهديد لا يكفي، ولا بُد من التدخل للتعامل معه. وكذلك، وبحسب الظروف، تعمل الرقابة على استكشاف الفرص التي تُتيح التعامل مع التهديد، ويبقى للتدخل أن يتحوّل من حالة المعالجة إلى حالة الاستثمار.

تعاني آليات الهيمنة الأجنبية من عقبات واكبت مسارها التاريخي، أهمها عقبة الاندماج في البيئة الأجنبية، حيث تقف ماثلة عوائق اللغة، والثقافة، والتقاليد، والخصوصيات المختلفة، ولا يكفي المسح الإثنوغرافي المستمر في التعامل مع تلك البيئة، على الرغم من كل ما يبذل من جهود وأموال في هذا المجال، فلا بُدَّ من الاتصال المباشر، واستكشاف ردود الفعل واستباقها وتوقعها، وبعد ذلك إنتاجها بشكل مستمر؛ لضمان السيطرة على الاتجاهات والمسارات، مع تغيير الأمزجة، والظروف، والأجيال، والشخصيات المباشرة كذلك.

الوظيفتان المحوريّتان في تلك العملية (الرّقابة، والتّدخل) هما الأكثر تأثراً بتلك العوائق، فحين تقترب الهيمنة من التنفيذ المباشر، وفرض السيطرة المستمرة، تواجه مشكلة الاندماج التفاعلي، أما الاندماج الأولي فتكفله المسوحات الإثنوغرافية والصورة الناعمة للدولة المهيمنة التي تُتيح لها الاتصال بالبيئة بشكل مقبول، المشكلة كلّها في التفاعل مع المتغيرات والتحوّلات، وتشخيص الكيفية الآمنة والفاعلة للتعامل معها.

في الأنموذج التطبيقي، سننعمد حالة الولايات المتحدة الأمريكية، كونها الشكل الأحدث والأكثر انتشاراً في ممارسة الهيمنة، وبما هي استمرارية عملية للتجارب السابقة، استوتحت وتعلّمت في مدارسها، وأنتجت منظومةً مُتكيفةً مع التطوّرات والظروف، في حين انكفأت المؤسسات الأخرى لنضوب مواردها، وتراجع انتشارها مع مرور الزمن.

لجأت مؤسسة الهيمنة الأمريكية إلى حلّ مشكلتي: الرّقابة، والتدخّل عبر توضيب النّخب التابعة داخل الأجهزة المعنية بالقيام بتلك الوظائف؛ بحيث استطاعت الاعتماد على النّخب المحليّة بشكل كبير جداً، في العمليّات الأساسيّة في اتّخاذ القرار، وليس في تنفيذه فقط، حيث تموضعت تلك النّخب في المستوى المعرفي في تلك المؤسسة؛ لتوفّر إمكانيّة الاندماج، وتقدّم المعرفة اللازمة والضروريّة لاستمرار النّفوذ والسّلطة الخارجيّة، وسنعرض لكلّ من الوظيفتين على حدة، وعلى البنى التي تمّ توضيب تلك النّخب وإدراجها داخلها؛ لتتقدّم المهيمن من مشكلاته المعرفيّة، ومن اغترابه عن البيئة التي يحتلّها.

## الوظيفة الأولى: الرقابة

تحتاج الولايات المتحدة الأمريكية، بحكم انتشار مشاريع نفوذها وسيطرتها على العشرات من الدول، بتفاوت في الأشكال والمستويات، إلى الرقابة الدائمة لصيانة الأنظمة التابعة، ومكافحة الأنظمة المعادية، والتدخل في عمليات التحول السياسي الاجتماعي التي تجري في كلا النموذجين، ويمكن مراجعة الجهد الهائل الذي بذله كل من دايفيد سيلفان وستيفن ماجسكي<sup>1</sup>، في مسح العمليات النفوذية الأمريكية حول العالم، مع تأسيس نظرية للآلية الميكانيكية المتبعة في ذلك<sup>2</sup>.

تحتاج تلك الصيانة والمكافحة إلى رقابة آتية، فعين الإمبراطورية لا ينبغي لها أن تغيب عن التقلبات الظاهرة ومُتغيراتها، أو الخفية والكامنة في البيئات التي تعمل على نهب مواردها، فعملية النهب عملية دقيقة وحساسة، عملية لا تتسجم مع الحاجات العامة للسكان، وتمسّ بظروف حياتهم المختلفة. ولذلك، لا بُد من الانتباه إلى أيّ تغيير في الوعي، أو الحركة التي قد تهدد النهب. وهناك مورد آخر لهذا الانتباه، وهو حساسية الشعوب المتجاورة تجاه أيّ نجاح في عملية التحرر؛ لأنها تُشكّل سابقة نفسية ومشروعية لعملية للخوض في مسار التحرر؛ ما يجعل من الرقابة المحلية شأنًا إقليميًا، وربما دوليًا للمهيمن.

تطوّرت الحاجة إلى الرقابة الآتية مع المُتغيرات المعاصرة، ففي عصر السرعة والوصول أصبحت إمكانية الانقلاب، وتفشّي العدوى السلوكية التحررية نتيجة وجود وسائل الإعلام الشاملة والمُتحررة من الرقابة أكثر خطورة، كما وفّرت وسائل التواصل الاجتماعيّة آليات لقيادة التحركات المعارضة بشكل أقلّ كلفة، وأكثر سرعة، وأقلّ خطرًا. وتدفع المُتغيرات الجارية في النظام الدوليّ إلى مزيد من التطلع التحرري؛ بفعل انزياح مركز الثقل العالميّ نحو الشرق.

ترتكز أدوات الرقابة على المتعاونين مع المؤسسات المعنية في وزارة الخارجية الأمريكية وهم: الموظّفين المحليين، وتقويم وسائل التواصل، واستبيان رأي النخب، ومركز الرصد في وزارة الخارجية.

1- David Sylvan, Stephen Majeski, U.S. Foreign Policy in Perspective: Clients, enemies and empire, 2009.

2- <http://www.us-foreign-policy-perspective.org/>.

## 1. الموظفون المحليون:

استنادًا إلى دراسة رسمية من مركز الأبحاث في الكونغرس الصادرة في العام 2018م يُشكل الموظفون المحليون 70 في المئة من جهاز وزارة الخارجية، تلك المكانة الهائلة هي التي نريد هنا الإضاءة عليها، فـجهاز الرقابة الذي يوفر استمرار الهيمنة قائم على من تم استتباعهم ثقافيًا، واستقطابهم وظيفيًا ضمن المؤسسة. تشير الدراسة إلى أنه «ابتداءً من 31 ديسمبر 2017م، وظفت وزارة الخارجية 50,225 فردًا مُصنّفين على أنهم موظفون محليّون، الذين يُشكّلون حوالي 68% من إجمالي موظفي وزارة الخارجية»<sup>1</sup>. يقوم أولئك الموظفون بعمليات المسح اليومي، والاتصال الاجتماعي، ومراقبة التغيرات المختلفة في البلاد<sup>2</sup>، ويستند الموظف الأمريكي المؤقت إلى وجود أولئك الموظفين عند قدومه للوظيفة التي لا تستمر أكثر من أربع سنوات، ليحلّ مكانه موظف جديد؛ بحيث يشكل الموظف المحلي مؤسسة الهيمنة العميقة، ويقوم الموظف الأمريكي بعملية اتخاذ القرارات بناءً على المعرفة التي يقدمها الموظف المحلي.

## 2. استطلاع الرّأي العام:

في ندوة بعنوان «بيانات المسح والقوة الناعمة: مكان التحليل الكمي في الحوكمة العالمية» في مركز الدراسات العالمية في جامعة الينوز في الولايات المتحدة، تحدّثت ريجينا فاراندا<sup>3</sup>، المسؤولة عن قسم استطلاع الرّأي في وزارة الخارجية الأمريكية، عن أهميّة استطلاعات الرّأي في اتخاذ القرار، واعتماد القسم الذي تُديره على المؤسسات المحليّة، والأفراد المحليّين في إنجاز تلك الاستطلاعات؛ بما يُمكن من تخطّي الحواجز اللغويّة والنفسية والرقابة الدائمة على التحوّلات في الرّأي العام تجاه السياسات الأمريكيّة، ويُقدّم لصنّاع القرار المعطيات الملموسة حول الظروف الاجتماعيّة في الدول المختلفة، ويشكّل أداة إنذار مبكر لأيّ تحوّل سياسيّ، ويسهم في بناء عمليات التّدخل المتناسبة مع التّهديدات.

1- Cory R. Gill, U.S. Department of State Personnel: Background and Selected Issues for Congress, Congressional Research Service, May 18, 2018, p15.

2- Shawn Dorman, Inside a U.S. Embassy: Diplomacy at Work, 2011, p 62.

3- Survey Data and Soft Power: The Place of Quantitative Analysis in Global Governance.

### 3. تقويم وسائل التّواصل:

سمحت تكنولوجيا وسائل التّواصل الاجتماعيّ بتقويم الأمزجة العامّة عبر الاستعانة ببرامج البيغ داتا، التي تُتيح مراقبة الكلمات السّليبيّة والإيجابيّة، وارتباطها بالقضايا والجهات السّياسيّة، وتقوم أجهزة مختلفة في وزارة الخارجيّة بتلك المسوحات بشكل دوريّ، بالاستفادة من عاملين محلّيّين لديهم المعرفة باللّغة المحليّة، والدلالات المختلفة، والتفاعلات الاجتماعيّة الجارية.

### 4. استبيان رأي النّخب:

يقوم مركز الاتّصال التّحليليّ<sup>2</sup> بالاستفادة من آراء النّخب التّابعة في البلدان التي تقع تحت الهيمنة، أو تلك المستهدفة من الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وذلك بهدف مقاطعة الآراء والتّحليلات والاقتراب بأكبر قدر ممكن من الواقع والتّحوّلات الجارية في المستويات: الرسميّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة المختلفة، ويشكّل مدخلاً لصدّق القرار في تشكيل رؤية مُعمّقة عن الظروف؛ بما يتيح لهم اتّخاذ القرارات المناسبة لحفظ مستويات الهيمنة والتّدخل وتطويرها. كما تُقدّم تلك النّخب، عبر الاشتراك في أنشطة مراكز الدراسات الأمريكيّة والغربيّة المختلفة، والعمل فيها بوصفهم باحثين مستقرّين أو زائرّين، النّصائح والخطط والمقترحات التي يمكن اعتمادها بذلك الصّدّد، وقد حصلت طفرة في توظيف الباحثين المحليّين في تلك المراكز في العقدين الأخيرين.

هكذا، تحوّلت عمليّة الاستتباع إلى عمليّة بناء قوّة تستخدم في استمراريّة الاستتباع نفسه، تكتمل دورة الرقابة من خلال تلك النّخب التي شكّلت عين الإمبراطوريّة على الأملاك المنهوبة، ومن خلالها استطاعت التّكيّف مع المتغيّرات، والمحافظة على تدفق المعرفة الحيويّة بالظروف والتحوّلات العميقة أو الداخلة. بنيت على تلك الرّقابة قدرات التّدخل، التي سوف تعتمد أيضًا بشكل رئيس على المحليّين، وهي تسمية معتمدة في النّصوص القانونيّة الأمريكيّة التي تُشرّع توظيف أفراد من السّكان داخل السّفارة الأمريكيّة، وفي أجهزتها السّياسيّة والاقتصاديّة والإعلاميّة الأكثر أهميّة، كما اعتمدت تسمية «المحلّيّين» في التّراث الاستعماريّ، تسمية مكانيّة، فتلك الفئة الهجينة لا هويّة لها إلا المكان.

1- Office of opinion research.

2- Office of Analytical Outreach.

## الوظيفة الثانية: التّدخل

أصبح التّدخل العسكري أداة محدودة الفعالية، وعالية التكلفة منذ أمدٍ بعيدٍ، ففي نيجيريا التي تحرّرت في العام 1960م، كان الجيش محلّيًا بالكامل، ومع تجربة فيتنام، ثمّ العراق في القرن العشرين، تمّ تثبيت ذلك المعيار. التّدخل عبر الوكلاء المحليين، عسكريين ومدنيين، هو السّياسة الأكثر جدوى. الظروف التي حكمت تطوير عمليّات الرّقابة لناحية الأدوات والتّقنيات، هي بنفسها التي تفرض في القرن الواحد والعشرين، الحاجة إلى قدرات التّدخل السّريع، واعتماد قوى محلّيّة جاهزة لمكافحة أيّ مسعى للتحرّر، بالوسائل المعرفيّة والميدانيّة ما دون القتاليّة. وهناك خارج مفهوم الاستتباع الناعم، قوى عسكريّة تمّ استتباعها وتوظيفها بشكل غير مباشر<sup>1</sup>؛ لتؤدّي المهام العسكريّة للجيش الغربيّة، وأهمّ التجارب في ذلك المجال هي الحركات المُتطرّفة في العالم الإسلاميّ، التي أدّت تلك الأغراض بتكاليف مُتناسبة مع الأوضاع الاقتصاديّة إلى قوى الهيمنة، ويمكن مراجعة الكثير من المصادر في ذلك المجال، بدءًا من وثائق أفغانستان 1979م، وصولًا إلى ملف أبو مصعب الزرقاوي في العراق، الذي كتبت عنه ندى باكوس كتابًا شديد الأهميّة، بعد انتهاء مهمّتها في ملاحقته، وإدارة ملفه<sup>2</sup>.

وفي المجال المدنيّ الناعم، يمكن الإشارة إلى أهمّ أدوات التّدخل، وهي: وسائل الإعلام، وإدارة الإدراك، ومنظمات المجتمع المدنيّ، والموظفين الرسميين.

### 1. وسائل الإعلام:

يقوم مركز المشاركة العالميّة<sup>3</sup> في وزارة الخارجية الأمريكيّة، بتمويل مُؤسّسات إعلاميّة خارجيّة بشكل مُنظم، على أساس ترويج السّياسات الأمريكيّة، وضمان مقبوليّتها لدى الشعوب المستهدفة. يدير تلك المُؤسّسات ويشغلها موظّفون من الدول المستهدفة نفسها، ويشكّلون اللّغة المناسبة التي توفّر الرّبط بين الغايات الأمريكيّة ومعايير القبول المحليّة، ويستطيع الإعلام تأدية دور قيادة المجتمعات وتوجيهها،

1- هادي قببسي، التحكّم غير المباشر: الإستراتيجية الأمريكيّة في توظيف الحركات السّلفيّة الجهاديّة، دار المودّة، لبنان، 2018م.

2- Nada Bakos, The Targeter: My Life in the CIA, Hunting Terrorists and Challenging the White House, 2019.

3- Global Engagement Center.

ويمارس تأثيراً هائلاً خلال عمليات التحوّل والانتقال السياسي الاجتماعي نظراً إلى ارتفاع نسبة التسيّس والانخراط، وتزايد منسوب التلقّي الإعلامي، وتنامي الحساسية في التفاعل مع الرسائل الإعلامية؛ بما يشكل أداة تدخّل سريع وآني ومستديم يخدم عملية الهيمنة، من خلال نشر معرفة تتناسب مع الأهداف الإجرائية والإستراتيجية للمهيمن؛ بينما تبقى المؤسسات الإعلامية الأمريكية الرّسمية ضئيلة التأثير، والوصول إلى المجتمعات المستهدفة.

## 2. إدارة الإدراك:

إلى جانب دورها في الرّقابة، تقوم النّخب المحليّة بوظيفة تدخليّة، تقوم على التأثير في النّخب المحليّة الرماديّة والرافضة للهيمنة جزئياً عبر النّخب التّابعة، وتغيير حساباتها وأفكارها وتوقعاتها ومواقفها، من خلال تقديم المصالح الأمريكيّة على أنّها مصالح مُتناسبة مع الحاجات الاجتماعيّة المحليّة، وعبر تصوير المساعي الرّامية إلى التّحرّر على أنّها غير واقعيّة، ولا تتناسب مع القناعات والظروف المحليّة. تستطيع تلك النّخب تحديداً، التّدخّل في الظروف الدقيقة، وإيجاد موجات رضوخ واستقبال للهيمنة، وتخطّي الاندفاعات الطبيعيّة للتّحرّر.

## 3. منظمات المجتمع المدني:

كتب الصّحافيّ الأمريكيّ دايفيد اغناسيوس المُقرّب من أجهزة المخابرات، مقالاً أوضح فيه دور تلك المنظّمات، بعيد انهيار الاتحاد السوفييتي في العام 1991م، فهي أصبحت تقوم بالوظائف التي كانت تقوم بها أجهزة المخابرات الأمريكيّة<sup>1</sup>. تنتشر تلك المنظّمات بأعداد هائلة في الدول المستهدفة؛ لتشكل جيشاً مدنيّاً مندمجاً في البيئة، وجاهزاً للتّدخّل عند اللزوم، مزوّدًا بالأدوات المعرفيّة والإعلاميّة، ومؤهلاً بالخبرات الميدانيّة الصّوريّة للقيام بالأنشطة الميدانيّة اللازمّة. تشكل تلك الأداة قدرة تدخّل حاسمة لمصلحة الهيمنة، حيث تُقدّم نفسها بوصفها حالةً سياسيّةً محليّةً، وتُعبّر عن نفسها بوصفها مثلاً لشرائح اجتماعيّة رافضة أو مُهمّشة؛ ما يعطيها مشروعيةً مؤثرة تسمح لها بتحقيق أهداف الهيمنة الأمريكيّة بفعاليّة، دون الحاجة إلى استحضار أيّ قوّة خارجيّة، وتمتلك تلك الأداة خاصيّة السرعة؛ بحيث تندمج في حالات التحوّل الاجتماعي وتسيطر عليها، وتنال دعمًا

1- David Ignatius, INNOCENCE ABROAD: THE NEW WORLD OF SPYLESS COUPS, 1991.

أمنياً دولياً تحت عنوان حراسة حقوق التعبير وحقوق الإنسان؛ بحيث تستطيع الوصول إلى أهدافها دون التعرُّض لمخاطر مؤثرة.

#### 4. الموظفون الرّسميون:

يتّصل الموظفون المحليّون في السّفارة الأمريكيّة بشكل مباشر بالموظفين الرّسميين في الدولة المضيفة، للتّدخّل عند الحاجة، كما يمكن دمج منظمات دوليّة داخل مؤسسات دوليّة، بصفة مستشارين ذوي رأي ملزم، يفرضون نفوذهم بشكلٍ مُتزايدٍ بفعل التّقديرات الماليّة التي تصل عبرهم إلى الموظّفين الرّسميين بوصفها علاوات وبدلات خدمات مختلفة؛ بحيث تصبح إدارة الدولة بيد تلك المنظمات، وأولئك المستشارون أنفسهم هم بغالبيتهم مُوظّفون محليّون كذلك. ويتحوّل الموظّف الرّسمي إلى جزء من الموظّفين المحلّيين في السّفارة عند الأزمات، حيث يستطيع القيام بالمهام التي تخدم السّياسات الأمريكيّة ضمن نطاق مؤسسته، سواء كانت أمنيّة، أو اقتصاديّة، أو اجتماعيّة.

#### الخاتمة

تقوم عمليّة الاستتباع وتستمرّ مستندةً إلى فئة شديدة التّبعية، وقد قاربنا النّاتج الواقعيّة لعمليّة الاستتباع التي تبدأ من استنطاق ميراث القدرة العسكريّة وصولاً إلى نمط الحياة والثّقافة والتّعليم؛ لتشكّل عبر ذلك فئةً شديدة التّبعية تضمن بجهدا وسعيها استمرار الاستتباع ودوام الهيمنة. سمحت عمليّة الاستتباع، إذن، بتوليد آليّة الاستتباع بذاتها، وذلك لما تخترنه من قدرة على التّلاعب بالهويّات، واستقصاء الفئات الحاضرة للتّلاعب بهويّتها وانتماؤها، والتّحوّل إلى نسيج هجين، يسكن في برزخ بين المهيمن والمهيمن عليه، ويخفف تكاليف الهيمنة ويخلّصها من أزمة الاندماج. إنّ ما تجنيه الهيمنة الاستعماريّة من موارد وأرباح نتيجة تسلّطها، يوفر لها، من ناحية أخرى، التّمويل الكافي لتشغيل تلك الأدوات المحليّة، فتكون الأموال التي تندفق إلى تلك الفئات الشّديدة التّبعية ليست شيئاً آخر سوى أموال الشعوب التي تمّ استنزافها، فتصبح عمليّة الاستتباع شبه محليّة بالكامل لناحية التّشغيل والتّمويل، وهذا هو الاحتلال الذاتيّ.

## المصادر والمراجع

### المصادر والمراجع باللّغة العربيّة :

1. هادي قبسي، التّحكُّم غير المباشر: الإستراتيجية الأمريكيّة في توظيف الحركات السّلفيّة الجهاديّة، دار المودّة، لبنان، 2018م.

### المصادر والمراجع باللّغة الأجنبيّة:

2. Vijay Prashad, The Darker Nations: A People's History of the Third World, 2008, p 245.
3. The Stanford Encyclopedia of Philosophy, Colonialism.
4. Francisco de Vitoria, Vitoria: Political Writings (Cambridge Texts in the History of Political Thought).
5. Friedrich Ratzel, Der Lebensraum, 1901.
6. Ronald J. Horvath, A Definition of Colonialism, **Current Anthropology**, Vol. 13, No. 1 (Feb., 1972).
7. John Barrett, The Rank and File of the Colonial Army in Nigeria, **The Journal of Modern African Studies**, Vol. 15, No. 1 (Mar., 1977).
8. David Sylvan, Stephen Majeski, U.S. Foreign Policy in Perspective: Clients, enemies and empire, 2009.
9. Cory R. Gill, U.S. Department of State Personnel: Background and Selected Issues for Congress, Congressional Research Service, May 18, 2018.
10. Shawn Dorman, Inside a U.S. Embassy: Diplomacy at Work, 2011.
11. Survey Data and Soft Power: The Place of Quantitative Analysis in Global Governance
12. Nada Bakos, The Targeter: My Life in the CIA, Hunting Terrorists and Challenging the White House, 2019.
13. David Ignatius, INNOCENCE ABROAD: THE NEW WORLD OF SPYLESS COUPS, 1991.